سلسلة مقالات الانبا ساويرس
البطريرك الانطاكي
٣

الصوم

١٩٦٩

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكي
٣

أقوال الآب القديس ساويرس بطريرك انطاكية
(٥١٢ – ٥٣٨)

الصوم

مترجم من الفرنسية من الجزء الثامن من مجموعة :
Patrologia Orientales R. Graffin - F. Nau
Les Homélies Cathédrales de Sévère d' Antioche
publiées et traduites par Maurcie Brière Paris 1941
وترجمته الى العربية لأول مرة ١٩٩٩ .

« باسم الآب والابن والروح القدس اله واحد امين »

غبطة أبينا المكرم الأنبا كيرلس السادس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

ألقى القديس ساويرس (٥١٢ - ٥٣٨) هذا الخطاب فى أول صوم الأربعين المقدسة باللغة اليونانية وترجمها إلى السريانية فى القرن السادس يعقوب الرهاوى ونشره وترجمه إلى الفرنسية موريس بريير Maurice Brière سنة ١٩٤١ ولم تترجم هذه النفائس إلى اللغة العربية ، فترجمنا هذا المقال عن الفرنسية من الكتاب الثامن من مجموعة :

Patrologia Orientales R. Graffin - F. Nau
Les Homélies Cathédrales de Sévère d' Antioche

وقد تكلم وكتب كثيرون من القدامى والمتأخرين عن الصوم ، لكن لم يأت أحد بمثل هذه الروائع الروحية والنغمات الطيبة تفيض من فم ذلك الأب كالماء الزلال يرتشفه العطشى فيرتوون من أقصر الطرق وأفضلها ، فيشعرون بالانتعاش بعد الجدب . وكلمته قادرة أن تحيي العطاش وتوردهم موارد الخلاص لأن فيها قوة الروح وجمال النعمة فضلا عن بلاغة الأسلوب وبراعة العرض التى اشتهر بها القديس ساويرس. ولا تزال مسحة هذا الجمال الأدبي ودقة هذه المعاني بارزة فى النص العربي بالرغم

من أنه لم يترجم عن النص اليوناني مباشرة بل إنتقل من اليونانية إلى السريانية إلى الفرنسية ومنها إلى العربية وان الألفاظ حاملة المعاني علقة بها من أجواء بعيدة مختلفة .

وقد مهد الصوم بذكر حالة الإنسان الأول وسقوطه واقامته بطريقة واضحة تبين الحكمة فى الصوم وما فرضه الله إلا ليقيل الإنسان من عثرته فينهض وقد طرد من روحه الخوف والحزن على حد قوله وأصبح جذلا فرحاً . ثم يبين فضائل الصوم وفاعليته فى حياة الرسل والقديسين ، مع أنباء شيقة عن القديسين تجلو حقيقة الصوم .

مليكه حبيب يوسف   يوسف حبيب

السمو بالنفس لاستقبال الصوم

كيف يستطيع أحد أن يتكلم عن الصوم كما يليق ، ان لم يمارسه ؟ وكيف نملكم أن الصوم وليمة روحانية ، إن لم نقم أمامكم مائدة غير مادية ؟ وبالأحرى كيف لا نحسب أننا نختبر المرارة بالصوم خير من أولئك المهتمين ببطونهم ، إذا كنا لا نظهر فرحنا فى أقوالنا فيما نغذيكم به ونغذى أنفسنا ، حسب تعبير ربنا الذى قال فى الأناجيل : « **طعامى ان اعمل مشيئة الذى ارسلنى واتمم عمله** » يو ٤ : ٣٤ . كان يقول هذا ، بعد حديث طويل مع المرأة السامرية ، حينما كان تلاميذه يلحون عليه لكى يأكل خبزاً .

ان الكلمة فى الواقع هى طعام الروح الحقيق ؛ لذلك باقتباس كلمة صاحب المزامير « **تبتهج شفتاى اذ ارنم لك ونفسى التى فديتها** » مز ٧١ : ٢٣ ، بل « تبتهج شفتاى » إذ أصوم إكراماً لك لأنه ينتج عن صومنا ، اننا نرتل بحكمة . كما أن الصوم نفسه يطهر فم الحكيم ويطهر آذان السامعين ، ويملى على النفوس تقدير الأشياء السمائية ورفض كل ما هو جسدى وأرضى .

ومع ذلك ، يوجد أناس جسديون فى فهمهم حتى أنهم يدعون « جسداً » Il sont la chair même .

يتركون فى قلبهم بشباب كما يقول الكتاب المقدس :

« فانه من فضلة القلب يتكلم الفم » مت ١٢ : ٣٤ . « الانسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح والانسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر . فانه من فضلة القلب يتكلم فمه » لو ٦ : ٤٥ . إنهم يقولون فى شراهتهم وجهلهم : « ماذا ينتفع الله بصومى ؟ » إذ لم أكن موجوداً ، أوجدنى فلماذا خلق لى أطعمة من كل نوع ، إذا كان الصوم لزاماً علىّ ؟ هل يسر الخالق كلى الجود أن أعلن الحرب على نفسى ، وأن اجعل جسدى نحيلا ، فأهلكه بالصوم والجوع وأرغمه على كسر الرباطات التى تربطه بالروح ؟

أما أنا فينبغى أن أسمع أولئك الذين يتكلمون بهذا الأسلوب وانى بعيد عن موافقة هؤلاء المخادعين التعساء الجديرين بالسخرية . انى اسمو بنفسى لاستقبال الصوم كملك آت من السماء وأحييه بكل احترام واكرام . انى أرتفع بنفسى الى الذكريات القديمة وأتعلم منها ، بقدر الامكان ، ما هو سبب خلقى وكيف كانت روح الإنسان فى كرامته الأولى .

لكنه يجب أن نبدأ من قبل ذلك قليلا .

الله كلى الجود :

Dieu, bienheureux et seul puissant pour parler comme Paul, qui apparait dans le Pére, le Fils et le Saint-Esprit, dans trois personnes distinctes et cependant dans une seule et même essence, qui seul est sans Commencement, éternel, sujet à aucun besoin, en tant qu'il est parfait en tout par nature, dans une effusion suprême et remarquable de sa bonté, quant cela lui a semblé bon, a créé le monde supérieur et spirituel, je veux dire les anges et les esprits administrateurs et immatériels .

« إن الله الواحد القدير العزيز ، كقول بولس الرسول **« المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الارباب »** ١ تى ٦ : ١٥ . أى الآب ، والابن ، والروح القدس ، ثلاثة أقانيم متميزة لكنهم جوهر واحد ، ليس له بداية ، أزلى ، لا يخضع لشىء ، إذ هو كامل فى كل شىء بطبعه ، مظهراً جوده بطريقة فائقة تسمو فوق الكل ، حينما سر بذلك ، خلق العالم العلوى والروحانى ، اعنى الملائكة ورؤساء الملائكة الروحانيين غير الماديين » . اراد أن يشركها فى السعادة وفى النعيم الفائق العظمة الذى ينبع منه بوفرة بسبب صلاحه للذين يملكون فيض النعمة حتى يمتلئوا بالنور الباهر

الذى ينبثق منه كما من ينبوع فيمجدونه بغير انقطاع دون أن يتعبوا مطلقاً بتسابيح سمائية وترانيم البهجة كما يقول النبى فى المزامير : « هلم نرنم للرب نهتف لصخرة خلاصنا . نتقدم أمامه بحمد وبترنيمات نهتف له » مز ٩٥ : ١ ـ ٢. لأنه بالحقيقة عيد ووليمة دائمة أن تسبح الله بدون توقف .

أراد أيضاً ، كما كتب بولس الرسول ، « لكى يعرف الآن عند الرؤساء والسلاطين فى السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة » اف ٣ : ١٠ ، أن يظهر على التوالى تنوع حكمته السرمدية وأن يمنح السرور بصفة خاصة للقوات السمائية ويبين لهم انه يستطيع أن يخلق ، ليس فقط الطبائع الروحانية غير المادية التى تحسب بذلك كأنها قريبة منه ، بل أيضاً تلك التى تكون غريبة تماماً عنه ، بعيدة عنه ومحرومة من قربه وليس لها اطلاقاً أى شبه أو شركة معه ، فأخرج من العدم هذا العالم المادى المنظور . أعطى السماء نجومها المختلفة ، زين الأرض بالأشياء الجميلة التى نراها على سطحها ، أكمل كل ما هو موجود بداخلها ، ألجم البحر . . . جمع المياه فى مجمع واحد كما هو مكتوب : « وقال الله لتجتمع المياة تحت السماء الى مكان واحد » تك ١ : ٩ ، أحاط الأرض بالبحر ونظمها بحيث يمكن للمياه أن تنزل عليها وتتدفق حولها : « لأنه على البحار اسسها وعلى الأنهار ثبتها »

مز ٢٤ : ٢ . رتب العناصر ، الأرض والنار والماء والهواء ، وأمرها بحكمة حتى يمكنها أن تختلط بعضها ببعض وهكذا وضع مجالاً مزيداً بانسجام كل هذه الأشياء واختلاطها بعضها ببعض دون أى فوضى ، ويمكن القول بأنه أراد أن يظهر مجداً خاصاً من كل خلقه (على حدة) ومجداً عاماً من اجتماعها كلها معاً . ومع ذلك فهو كامل ولا يحتاج لأن يمجده أحد ، لكنه هكذا يميز أولئك الذين يمتدحون العلم الوفير والتأمل ويعظمونه تعالى .

Mais et tire de là l'avantage de grandir chez ceux qui louent l'abondance de la Science et de la Contemplation .

لقد شهد بالفعل أن خلق السماء والأرض وباقى العالم الذى يقع تحت الحواس المنظورة ، كان سبباً فى أن الملائكة زادوا التمجيد والتسبيح المختصين بالله . وقد بين الكل بالجزء ، حينما قال لأيوب : « عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله » أيوب ٣٨ : ٧ .

ولما كانت هذه الآفاق بعيدة جداً ومنفصلة ، أعنى العالم الروحانى والعالم المنظور ، ولايوجد بينهما اختلاط أو شركة ، فقد خلق الإنسان بفعل عجيب ووضعه بين الإثنين . شكل أولاً جسداً من الطين ، كما يقول هو نفسه أيضاً لأيوب فى هذه

العبـــارات : «تتحول كطين الخاتم وتقف كأنها يابسة» أيوب ٣٨ : ١٤ . ثم وضع فى هذا الجسد نفساً عاقلة روحانيـة غير مادية . أنت الذى بعد أن أخذت طيناً شكلت من التراب كائناً حياً ، ووهبته النطق ثم وضعته على الأرض .

هكذا يذكر الإنسان حقاً بالعالم المنظور بجسده وبالعالم غير المادى الغير منظور بروحه؛ وبرؤيته ذاك (العالم المنظور) بعين الروح ، يكتشف حكمة الخالق الظاهرة فى كل منهما ، ويشعر بالفرح والتهليل ، عند تفكيره فى أنه يسكن على الأرض مثل ملاك آخـر ، فيكون فى نفس الوقت منظوراً وغير منظور ، ويظهر فى ذاته أكثر من الملائكة بالعقل الذى لا يمكن لحصـه الذى لله الحكيم وحده .

هو ذاته فى الواقع روح وجسد وهو منظور؛ وليس منقاداً فى عقله على الاطلاق بسبب الاتحاد بالجسد ، وأنه أيضاً ليس منحنياً أو مائلا إلى أسفل من جراء حركات الروح العاقلة ؛ لأن له جسداً ضعيفاً طائعاً ، متجهاً إلى فوق ، يتبع الإرادة المستقلة للروح كأنها سلطان يستمد منها التوجيه .

لذلك فى الواقـع نتج عن اتحاد العنصرين كائن واحد ، وما كان ذلك ليتسلط من هو أدنى ، بل الأعلى .

لأن ما قاله الحكيم : «لأن الجسم البالى يثقل النفس . والمسكن الأرضى يثقل العقل الكثير الاهتمام» سفر الحكمة ٩ : ١٥ . هذا لم يحدث إلا بعد تعدى الوصية ، وبحدوثه حـكم على الإنسان بالسقوط من الفردوس ، وبالمضايقات وبالتعاسـة وبالأحزان وبفساد الموت ؛ فكان يسمع فعلا : «وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود الى الارض التى اخذت منها . لانك تراب والى تراب تعود» تك ٣ : ١٨-١٩ . لكن قبل أن يعصى وصية الله الذى كان يمتحن حريته ، كان مكرماً بنعمة الخلود ؛ لأن الذى قال : «لأن الجسم البالى يثقل النفس» قال قبـل ذلك بقليل : «فان الله ما صنع موتا ولا يطرب بهلاك الاحياء» سفر الحكمة ١ : ١٣ .

ان الهموم أيضاً قد سادت بسبب الخطية والشر ؛ ومكتوب فعلا فى سفر أيوب المملوء حكمة : «الشرير هو يتلوى كل ايامه وكل عدد السنين المعدودة للعاتى» أيوب ١٥ : ٢٠ .

لذلك إذاً فإن الذين يشغلون قبل كل شئ بخلاصهم (لأنه يلزم ضرورة أن تكون لنا إنفعالات وأنه حكم علينـــا بذلك بسبب خطية أبينا الأول) يحولون الجهد إلى إقتناء الفضائل ، ويوجهون همهم نحو الخيرات السمائية ونحو الرجاء العتيد الآتى ،

كما هو مكتوب فى الأمثال : « **ليصادف الانسان دبة ثكول ولا جاهل فى حماقته** » أم ١٧ : ١٢ . يمكن للرجل الحكيم أن يعتريه هم ، أما الجهلاء فإنهم يتأملون دائماً فى الشر .

ومن هو الرجل الحكيم إلا ذاك الذى يكون صحيحاً فى فهمه يتأمل الاشياء التى تتفق والعقل والسمويات ، ولا سيما الطريق إلى حفظ الحياة الآتية المعدة للنفس العاقلة ؟ هكذا إذاً كان الرجل الأول يملك هذه الخيرات الطبيعية الممتازة الغالية ، فإنه لم يأخذ الجسد مثل ثقل أو عائق من رصاص على سبيل العقاب (كما تخترعه روايات الوثنيين) لكنه يظهر فى طبيعته غير المادية حكمة الخالق الذى يسمى لذلك « **محب البشر** » لا يكره تعالى بأى حال الخلائق الأخرى : لانه كأب له مشاعر الرحمة نحوها جميعاً بل ان الإنسان أكثر الخلائق كلها إفادة منها . جعلت قدرته فى تباين خليقته يظهر تراباً وعقلا دون أن يكون هناك فرضى فى اتحادهما الوثيق . لذلك يقول داود أيضاً : « **السموات تحدث بمجد الله . والفلك يخبر بعمل يديه** » مز ١٩ : ١ . لكنه يعترف بأن خلق الإنسان يفوق كل تدبير بقوله : « **من خلف ومن قدام حاصرتنى وجعلت على يدك . عجيبة هذه المعرفة فوقى ارتفعت لا استطيعها** » مز ١٣٩ : ٥ - ٦ .

من هنا يتبين أن نيل الإنسان الفردوس مقاماً يتفق مع هذه الحياة الخالدة الخالية من كل قلق ، الفردوس الغنى بالنباتات التى تعطى ثماراً تستطيع أن تغذى الذين يعيشون حياة مثل هذه[1] وتعود على النفس بالمنفعة واللذة ، كما يقول المثـــل المقدس : « **الصديق يأكل لشبع نفسه** » أم ١٣ : ٢٥ .

حال الانسان بعد السقوط

ومن ناحية أخرى فإنه من المؤكد أن الجسد كان أيضـــاً يتغذى مع الروح فى نفس الوقت وأنه كان يشعر بالفرح بمشاركة خاصة بالروح برباط الطبيعة المشترك . فى الواقع كما أنه منذ أن لبس آدم القمصان الجلدية ، بعد أن تعدى الوصيـة ، قد لبس الفنـاء الذى يتبع الحكم بالموت ، والثقل والوزن اللذين يأتيان منه[2] ، (والجلد هو علامة الموت) ، أصبحت الأطعمة ثقيلة منذ ذلك الوقت ، تغذى الجسد ، وتسر النفس وكأنها تطوقها

---

(١) يذكر القديس ساويرس فيما بعد أن أطعمة الفردوس كانت غير مادية ، والأرجح حسب ذلك القول أنه يقصد بالنباتات التى تعطى ثماراً فى الفردوس نباتات العبادة والطاعة ومعرفة وصايا الله التى تعطى ثمار التسبيح والتمجيد والحياة الروحية .

(2) la lourdeur et la pasanteur qui en découlent

بسبب اتحادهما الوثيق ؛ وكذلك أيضاً ، قبل تعدى الوصية ، كان الجسد بسبب خفته وقلة وزنه مرفوعاً ومحمولا إلى فوق مع الروح فى نفس الوقت ، وكان يتغذى مع الروح بأطعمة مناسبة فى نفس الوقت . بيد أنه حالياً يجر الجسد الروح إلى أسفل ، فتشتاق بشراهة وقابلية نحو الأطعمة المادية؛ وحينما كان الروح له الأهمية الأولى بفضل طبيعته ، وكان يجر الجسد نحو الخيرات العالية ، كان الإنسان يشتهى باشتياق أطعمة الفردوس التى كانت قبل كل شىء غير مادية (١) . وتتج من ذلك أنه اتجه إلى ثمرة الشجرة المحرمة ، بعدما لم يكبت شدة الرغبة بالرغم من وصية الله ، وأن عنف الرغبة هذا كان من الروح وليس من الجسد ، وأن ذلك تبينه اغراء الخداع بقوله : « **انه يوم تاكلان منه تنفتح اعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر** » تك ٢ : ٥ . وهذه الرغبة فى أن يصير الإنسان إلهاً ، ولو أنها ضرب من الجنون ، رغبة غير مادية من الروح وليست للجسد .

وإذا قال أحد : « لماذا إذن جعل الله الأرض التى خلقها

(١) وهذا لايعنى أنها غير مادية فعلا ، لكن الانسان لكونه غير جسدانى أى ليست له شهوات جسدية مضادة لشهوات الروح لايشعر فى الأكل بشهوة جسدية إذ كان فرحه بالرب يملأ كل طاقاته .

أولا خضراء بوضعه فيها نبات القمح المغذى والنباتات الأخرى ان لم يكن يلزم للانسان أن يتغذى بها ؟ » ، فسوف أجيبه : « ذلك لكونه أيضاً طبيب ، فهو يعد الأدوية قبل المرض . وكيف أنت نفسك لا تترك ما يليق فى الوقت الذى فيه تقر بأن الله يستطيع مثل الطبيب أن يتخذ سلفاً الاجراءات وهو الذى يعرف كل المستقبل بوضوح ؟ ولأننا أصبحنا مرضى وسقطنا تحت عبودية الحالة الجسدانية ، فقد أعد الله لنا مقدماً أطعمة مناسبة . ولكن كما أن الطبيب يغذى المريض بينما يزيل الأسباب الفعلية للأمراض فيجعله يعود إلى الصحة الطبيعية ، كذلك الله يغذينا من الناحية الجسدية مثل المرضى ، ويجعلنا نعود إلى حالة سكنى الفردوس وفى الحالة الأولى السليمة ، وذلك برسمه الصوم عن هذه الأطعمة المادية وبتذكرته الروح بكرامتها الأولى بواسطة الناموس والأنبياء وأيضاً بوصايا الأناجيل والرسل .

قرر موسى أن يكون اليوم العاشر من الشهر السابع الذى هو يوم التكفير ، يوماً مقدساً مدعواً ويوم صيام ، أى مدعواً من الله وليس من اختراع الناس : « **ويكون لكم فريضة دهرية انكم فى الشهر السابع فى عاشر الشهر تذللون نفوسكم وكل عمل لاتعملون الوطنى والغريب النازل فى وسطكم.**

لأنه في هذا اليوم يكفر عنكم لتطهيركم . من جميع خطاياكم أمام الرب تطهرون . سبت عطلة هو لكم وتذللون نفوسكم فريضة دهرية » لا ١٦ : ٢٩ - ٣١ .

هكذا بولس الرسول أيضاً أطلق على نفسه اسم المدعو والرسول : « **بولس عبد ليسوع المسيح المدعو رسولاً المفرز لإنجيل الله » رو ١ : ١ . « بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الآب الذى أقامه من الأموات » غل ١ : ١ .** لأنه ليس من قبل الناس وليس بإنسان ، بل بالمسيح يسوع مخلصنا وإلهنا ، دعي من السماء إلى الكرازة ، وما كان قبل ذلك رسولاً مثل الآخرين ، وبهذه الطريقة دعا نفسه رسولاً . ولكن نظراً لأن العبرانيين كانوا في حالة وضيعة جداً وكانوا متعلقين بالجسد ، فكان المشرع يقول لهم : « **وتذللون نفوسكم** » لا ١٦ : ٣١ ، وذلك بعد أن أطلق على الصوم ، باعتباره يوماً عظيماً ، اسم اليوم المقدس المدعو .

وإشعياء النبي وهو يقيمهم من هذه الهوة كان يرفعهم ويجذب عقولهم إلى فوق بإعلانه عظمة الصوم ؛ فيدفعهم إلى التهليل الروحاني ويطرد من أرواحهم الحزن والحداد ، وهو يصيح فيهم قائلاً : « **أمثل هذا يكون صوم أختاره . يوماً يذلل الإنسان فيه نفسه يحني كالأسلة رأسه ويفرش تحته مسحاً**

ورماداً . هل تسمي هذا صوماً ويوماً مقبولاً للرب . أليس هذا صوماً أختاره حل قيود الشر . فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً وقطع كل نير . أليس أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك . إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك . حينئذ ينفجر مثل الصبح نورك وتنبت صحتك سريعاً ويسير برك أمامك ومجد الرب يجمع ساقتك . حينئذ تدعو فيجيب الرب . تستغيث فيقول هأنذا » أش ٥٨ : ٥ - ٩ .

لذلك فإن ربنا بينما كان يعلن بهاء وسرور الصوم ، كان يأمر أيضاً بصوت واضح قائلاً : « **وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك** » مت ٦ : ١٧ . فكان يشير إلى بريق وطهارة الروح عن طريق الأعضاء الرئيسية في الجسم . إذ أن معظم الحواس تتجمع في اتجاه الفكر والسمع ، الذوق ، البصر ، الشم ، التي بواسطتها كخدام ، يباشر العقل نشاطه فتخدمه فيما يلزم عمله وتعمل معه بطريقة مشتركة إما الشر أو الفضيلة . فربنا نفسه يأمر أن نغتسل ونتطهر بامتناعنا عن الشر ، ومن جهة أخرى أن نتزين ونضيء بممارستنا الخير الذى تثيره النعمة الروحية . إذن فإنه تعالى يحب الذين يصومون لا لشيء سوى أنهم يمجدونه من أجل خليقته .

فبعد أن أطاح الفساد والموت والثقل بالجسد إلى أسفل ، أصبح الناس كأنما يعيشون في الفردوس يغذون أرواحهم بأطعمة عقلية غير مادية ، ونظراً لأن ذلك يحدث لدى موازنة كفتي الميزان ، فإن قوة دفع الأشياء العالية تجعلهم يقودون الجسد ليرتقوا به إلى فوق .

من أجل هذا نسي بولس الرسول ، حينما شرع في الكلام إلى تلاميذ ترواس الذين اجتمعوا حوله لكي يكسروا خبزاً ويتناولوا الطعام ، نسي الطعام المحسوس ؛ فقد كان يتغذى في نفسه بالأفكار السماوية ، فأطال خطابه حتى منتصف الليل . ويمكننا أن نرى حالاً ثمرة مثل هذه الفلسفة . فقد كان هناك شاب يدعى افتيخوس جالساً فوق نافذة ، (وكان للمنزل ثلاثة سقوف) ، فسقط ميتاً . فأقام بولس الرسول هذا الشاب الملقى على الأرض بأن اضطجع فوق جسده ببساطة . وكان يصيح نحو الواقفين حوله محاولاً أن يبسط عظمة المعجزة ويكتمها بروح متواضعة قائلاً : « **لا تضطربوا لأن نفسه فيه** » أع ٢٠ : ١٠ .
وبعد ذلك صعد إلى المنزل وكسر الخبز دون أن يتوقف عن الكلام بأشياء ممتازة . بل ان فجر اليوم كان قد لاح بينما كان بولس الرسول لايزال يتكلم ، لأنه كان قد نسي ساعة النوم :

« واما نحن فسافرنا في البحر بعد ايام الفطير من فيلبي ووافيناهم في خمسة ايام الى ترواس حيث صرفنا سبعة ايام وفي اول الاسبوع اذ كان التلاميذ مجتمعين ليكسروا خبزا خاطبهم بولس وهو مزمع ان يمضي في الغد واطال الكلام الى نصف الليل . وكانت مصابيح كثيرة في العلية التي كانوا مجتمعين فيها . وكان شاب اسمه افتيخوس جالسا في الطاقة متثقلا بنوم عميق . واذ كان بولس يخاطب خطابا طويلا غلب عليه النوم فسقط من الطبقة الثالثة الى اسفل وحمل ميتا . فنزل بولس ووقع عليه واعتنقه قائلا لا تضطربوا لان نفسه فيه . ثم صعد وكسر خبزا واكل وتكلم كثيرا الى الفجر . وهكذا خرج . واتوا بالفتى حيا وتعزوا تعزية ليست بقليلة » أع ٢٠ : ٦ - ١٢ .

وبعد ذلك فوراً أخذ طريقه إلى مكان آخر . كان ينظر إلى الأعمال التي يقوم بها من أجل الكرازة كأنها شيء مفضل ؛ لذلك كان يقول مبيناً ذلك بوضوح : « **لأن محبة المسيح تحصرنا** » ٢ كو ٥ : ١٤ . لأن قيام وحياة الذين يحبون الله قوامها المحبة فقط .

بذلك استطاع موسى أن يحتمل صوماً متصلاً لمدة أربعين يوماً ، حينما كان يأخذ التعليمات المتعلقة بالناموس على الجبل وكان يتغذى بالتأمل في الله . وبذلك أيضاً أمضى هو نفسه أربعين يوماً دون أن يتناول طعاماً ، حينما كان على وشك الاتصال بالله بقدر الإمكان ، في مغارة حوريب .

ومن أجل ذلك ، قبل إيليا توسلات الشعب الذى كان قد اخطأ وخلصه من غضب الله ، فأوقف الله المطر ، وليس ذلك فقط بل أوقف حتى قطرات الندى لمدة ثلاث سنين وستة أشهر ، فى الوقت الذى كان الله فيه يعاقب شر اسرائيل بالجفاف . وبعد ذلك أعاد إلى الأرض ريها من جديد بأمطار غزيرة جـــداً ؛ فبالصلاة التى هى ثمرة الصوم صنع هاتين المعجزتين . « موسى وهرون بين كهنته وصموئيل بين الذين يدعون باسمه . دعوا الرب وهو استجاب لهم » مز ٩٩ : ٦ . فى الواقـــع كان يرام يرفعون روحهم ويسمون بها نحو كرامتها الأولى ويخدون بها جسدهم ، فكان يكافئهم كخدام حقيقيين .

ان الرسل وكذلك الذين تبعوهم ، كانوا يمارسون الصـــوم طوال حياتهم ، وكانوا يصنعون كل الأشياء بعد الشروع أولا فى الصوم والصلاة .

Les apôtres, ainsi que ceux qui les suivirent, pratiquaient le Jeune toute leur vie, et ils faisaient toutes choses, aprés avoir mis en œuvre auparavant le jeune et la prière .

ويشهد سفر الأعمال بذلك فى هذه العبارات : « وبينما هم يخدمون الرب ويصومون قال الروح القدس افرزوا لى برنابا

وشاول للعمل الذى دعوتهما اليه . فصاموا حينئذ وصلوا ووضعوا عليهما الايادى ثم اطلقوهما » أع ١٣ : ٢-٣ .

وفى مكان آخر ، يقول أيضاً بخصوص بولس وبرنابا : « وانتخبا لهم قسوساً فى كل كنيسة ثم صليا باصوام واستودعاهم للرب الذى كانوا قد آمنوا به » أع ١٤ : ٢٣ . ولذلك كانوا يصنعون عجائب كثيرة ويشفون الأمراض من كل نوع .

لكن ، حينما تسمع ذلك ، قد تقول : « ان هؤلاء لديهم دافع حقيقى إلى الصوم ، إذ قد وصلوا إلى كمال عظيم بهذا المقدار وكانوا تلاميذاً ؛ أما أنا ، فإنى رجل خاطىء ولا شىء » .

عجباً فى هذا ! هل كان الصوم نافعاً وضرورياً للرسل ، لكنه زائد عن الحاجة لك أنت الخاطىء ؟

نعم ، أقـــول ، لأن هؤلاء كانوا يصومون لكى يصنعوا المعجزات والعجائب ، أما أنا فلا أطلب سوى أن آكل واشرب واسير فى العالم دون أن تكون علىّ أية مسئولية » .

ولكن أولا ، من خواص روح الخنزير والشرور ألا تكون عنده أية محبة للفضيلة والشركة مع الله بل بالعكس لاينظر إلا إلى بطنه . ثم ، ان الرسل كانوا يصومون لكى يروضوا أجسادهم ،

ولم يكونوا يعملون بقصد اظهار عجائبهم ؛ لانهم لم يكونوا عبيداً للمجد الباطل .

Ensuite, les apôtres jeunaient pour dompter leur corps; et ils n'ouraient pas leur palais pour faire montre de prodiges, car ils n'étaient pas esclaves de la vaine gloire .

وبولس الرسول يشهد بذلك حينما يكتب إلى أهل كورنثوس : « بل اقمع جسدى واستعبده حتى بعد ما كرزت للاخرين لا اصير انا نفسى مرفوضا » ١ كو ٩ : ٢٧ .

هكذا إذن فإن هدف الصوم هو قمع الجسد ، وكانت العجائب من المسيح الذى يصنعها ، فكان يكرم فضيلتهم وفى نفس الوقت يفيد الآخرين الذين كان من أجلهم يحدث ظهور هذه العجائب ، لكى يؤمنوا بالإنجيل .

لكن سوف تقول أيضاً : « ان هؤلاء كانوا يتحملون الصوم بسهولة ؛ أما أنا فحينما أصوم ، أظن أن جسدى ينحل وأوصالى تتمزق وتكاد تزهق روحى » .

لماذا تحاول بهذه الحجج أن تهرب من الصوم ، مثلما يفعل خادم تجاه سيد شديد ، بينما يأمرك الله بما يجلب لك الخلاص ؟ هل تظن فعلا ، انه كان يعامل جسده بقسوة قليلة ذلك الذى

يقول : « اقمع جسدى » ، لأن القمع يعنى الغصب « ومن ايام يوحنا المعمدان الى الآن ملكوت السموات يغصب والغاصبون يختطفونه » مت ١١ : ١٢ .

لكن الذى تصرف هكذا بعنف ، بطريقة خاصة ، جعل من العنف طبيعته، لأن الله لم يأمرنا أيضاً بأشياء مستحيلة ، بل ذهب إلى حد القول: « مع المسيح صلبت فاحيا لا انا بل المسيح يحيا فى . فما احياه الآن فى الجسد فانما احياه فى الايمان ايمان ابن الله الذى احبنى واسلم نفسه لاجلى » غل ٢ : ٢٠ .

يجب إذن أن نعامل ميل الجسد إلى الشر بقسوة خفيفة ، فتدخل حينئذ تعزية الله بدلا منها ، وكذلك السرور الذى يتأتى عنها الذى يتمم الكلمة المليئة بالفلسفة التى قالها المرنم : « عند كثرة همومى فى داخلى تعزياتك تلذذ نفسى » مز ٩٤ : ١٩ .

Il faut donc que nous traitions avec une légère violence la concupiscence de la chair; et il entrera désormais à la place de celle - ci la consolation de Dieu, ainsi que la joie qui en vient, laquelle accomplit la parole pleine de philosophie dite par le psalmiste .

منذ ذلك الحين فإن السعادة التى تلبع ذلك، تسرى ذاتها فى الجسد وتجعله ناجحاً وبصحة جيدة كما هو مكتوب : « القلب الفرحان

يجعل الوجه طلقا وبحزن القلب تنسحق الروح» أم ١٥ : ١٣

إذا كانت عين الروح متطهرة وإذا كانت تتلذذ بالتأمل السامى وبالاعلانات السماوية ، فإن ظهور هذه السعادة والفرح بها يسريان أيضاً فى العظام ويدخلانها مثل العطر . وهذا ما يؤكده الكتاب المقدس بقوله : « **نور العينين يفرح القلب . الخبر الطيب يسمن العظام** » أم ١٥ : ٣٠ .

ثم يستشهد القديس ساويرس بالقديس أثناسيوس فيقول: « كتب القديس أثناسيوس ، الشعلة السماوية بين الأساقفة ، شيئاً مماثلا فى سيرة حياة القديس انطونيوس ، قدوة حياة النسك كان القديس انطونيوس فعلا قد ذهب إلى مكان فى هذه المناطق التى لم تطأها الأقدام ولا عاش بها إنسان ، وتوغل فى الصحراء الداخلية ، ومكث هناك طويلا فى حياة قاسية وشديدة جداً أبعد من كل حد . وحدث أن بعض الناس ضايقوه بعد أن فتحوا بابه بقوة شديدة . يقول أثناسيوس : « خرج انطونيوس إليهم ، كامن داخل مكان مقدس لايصل إليه أحد متملئاً من الأسرار ومتمسكاً بالله . وكانت هذه هى المرة الأولى التى يظهر فيها خارج قلعته للذين أتوا ليبحثوا عنه . وحينما رأوه تعجبوا فقد كان لجسده نفس الشكل ، لم يكن قد سمن بسبب قلة التمرين،

ولم يكن أيضاً قد نحف بسبب الأصوام ومحاربة الشياطين ، لكنه كان كما عرفوه قبل ذهابه . ومن ناحية أخرى فقد كانت لروحه صفات طاهرة ؛ فلم تكن فى الواقع منكسرة (abattue) بسبب الحزن ، أو متراخية بسبب اللذة ، ولم يكن يأخذ بها الضحك أو الكآبة لأنه لم يضطرب لرؤية الجمع ، ولم يفرح بتحيات كل هؤلاء الزوار . لكنه فى كل شىء كان رزيناً ينقاد بالعقل لأنه كان على طبيعته .

Mais en tout il itait ègal comme s'il eut été conduit par la raison et parce qu'il était dans la nature .

هكذا إذن فإن الإنسان بالطبيعة يهب قوة للروح بالأصوام وبأعمال حياة النسك وبتغذية الجسد بالأغذية الغير مادية التى تليق بها .

لحتى متى نظل خارج الطبيعة ونحسب بجهالة ، اننا نقطع أسباب هذه الحياة الغير مجدية ، لو حفظنا الصوم فى هذه الأيام القليلة ؟

فإن لم يكن لدينا حافز على الصوم باعتباره فضيلة أفلا نكرم ابن الله ، الكلمة الكائن قبل الدهور الذى تواضع من أجلنا ،

لدرجة أنه نزل أيضاً من السماء ، وتجسد وتأنس بدون استحالة ، وقدم ذاته فداء عنا بالصليب لكى يطهر العالم ، وتألم بالجسد ، الا نكرمه تذكاراً لآلامه وقيامته ، ألا نتألم له فنتألم بالصوم عوضاً عن آلامه من أجل خلاصنا ؟

ألا ترى أن محاربة الشياطين على الأبواب ؟ ما كنت أقول لكم ذلك مقدماً ، ان لم يكن هناك من يستهزئون قائلين : « حتى متى هذه التوسلات الملتية ، وهذه القداسات المرتلة وهذه الصلوات ؟ » هل نبق إذن تحت هذا الاحتقار ؟ عندما تقوم الأعداء علينا ، فإننا نحمى الأسوار والأبواب ، محاولين درء الهزيمة ، أفلا نحمى أنفسنا حينما تهاجمنا الأرواح اللعينة الشريرة الغائبة ، أعداء البشر ، بسبب خطايانا ، ألا ندافع بالسور الروحاني : الصوم والصلاة ؟

ومكتوب : « هذا الجنس لا يمكن ان يخرج بشيء الا بالصلوة والصوم » مر ٩ : ٢٩ .

لا نيأس إذن ، ولنتب كليـــة ، دون أن نرجع أبداً إلى الوراء ، لأن ساعة واحدة من التوبة الحقيقية تكفى لإبعاد أشد

الغضب . وهذه الأيام المقدســة المكرمة هي نوع من المعونة لنا [1] ، فلننتهز الفرصة ، والذى مجد هذه الأيام بآلامه شخصياً وبقيامته ، سوف يسمع لنا ويخلصنا . له المجـــد إلى أبد الدهور آمين .

(1) Ces jours saints et Vénérables sont pour nous une sorte de secours .